# بَقايا الأمسِ

بقلم: عبد السّلام هلالي

ركن سيّارته عند المدخل البحريّ للمدينة العتيقة، وترجّل يلاحق ذكرياتٍ استدرجته إلى الشّارع الرئيسيّ الذي لا زال يختنق بأنفاس مرتاديه، و تتزاحم عليه الخطوات كما تركه قبل عشر سنوات.

تغيرت ملامح وجوه، شاخ البعض، ورحل البعض الآخر؛ فاسحا المجال لوجوه جديدة أُلقي بها على هامش الحياة في دورة لا تنتهي . أصوات الباعة تصدح بكلّ أملها ، تنادي كسرة خبز صمّاء. تتنافس على استمالة الأسماع لتنفذ إلى الجيوب .

أفواج تتناسل، أجساد لا يفصل بعضها البعض سوى الثّياب. عيون هائمة تحاول استيعاب عناصر المشهد المكتظّ . أياد تقلّب السّلع مفتشة عن عيوبها للإفلات من حبال صاحبها، أو تقوية الموقف التّفاوضيّ، و أخرى تتلّمس الأجساد، تسترق متعة عابرة، وغيرها غاطسة في رحلة استكشاف لجيوب و حقائب شاردة.

تتعالى الأصوات أكثر فأكثر، يزداد الشّارع ازدحاما بسيول



obeikandl.com

بشريّة تتدفّق من كلّ الأزقّة الفرعيّة، ومعها تزداد سيول الذّاكرة دفقا وقوّة . تجرفه نحو أيّام كان أقسم أن يغتسل من غبارها، ويحرق ما بقي منها نسيانا.

خيّل إليه الفضاء من حوله بحرا، والعابرون أمواجا متلاطمة.. تاهت بوصلته، أحسّ بدوار وتعب، لم يقو على مواصلة المسير، ولا مجال للوقوف. التجأ إلى الرّصيف حيث يلقي الشّارع بالضعفاء ، وتتزاحم معروضات الباعة، وإلى جانبها أحلامهم وأجسادهم لتشكّل عناصر الفرجة. استند إلى جدار يحمي ظهره، فقد علّمته سنوات الشّقاء التي أمضاها في المكان أن لا يترك ظهره دون حماية، وأن أغلب الأخطار تأتي من الخلف.

طويتِ المسافات بين ماضيه وحاضره، حتّى لكأنّها البارحة، حين قرّر أن يتخلّص من صفة عاطل، ويعلي شأن يده. لم يتطلّب الأمر غير رزمة جوارب نسائيّة، بساط قديم، وصوت قويّ يبدأ يومه بعد العصر محتشما؛ ليصل أوج الحماسة قبيل المغيب، ثمّ يأخذ في الانحدار والتّقطّع استعدادّا للرّحيل. الصّوت في مثل هذه الأسواق رأسمال مهمّ ويصنع الفارق. من يصرخ أعلى يربح أكثر تماما كما في السّياسة ،ولا عجب ، فكلاهما سوق، وإن تفاوتت الأرباح.

ابتسم عندما تذكّر أوّل مرّة سمع تلك الجملة المستنفرة : " القايد جاي ..... القايد جاي " . فقد ترك البضاعة وأطلق ساقيه للرّيح؛ ليبقى مدّة طويلة عرضة للسّخرية من طرف الباعة. تطلّب منه الأمر وقتا طويلا، وخسارات عديدة قبل أن يعتاد الكرّ والفرّ، ويتعرّف على قواعد السّوق ويتقن لعبة المساومة مع الزبائن و أعوان "القايد."

تذكّر آخر يوم له في المكان، حين اهتزّ هاتفه فرحا بقبوله النّهائي كأستاذ في إطار حملة لتوظيف أصحاب الشّواهد العليا. باع بضاعته لأحد جيرانه من الباعة بنصف الثّمن، وانطلق دون أن يلتفت.

"القايد جاي .... القايد جاي " أفاقته الصّيحة من سفر الذّاكرة، أطلق ساقيه للرّيح، ولم يلتقط أنفاسه إلّا داخل سيارته.

*القايد : من رجال السلطة